حماية البيئة
في الشريعة الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله تعالى ، والصلاة على رسوله الأمين وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وبعد :

فإن الإسلام الحنيف جاء لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو رحمة خالصة بالإنسان والنبات والحيوان والجماد ، ونحو ذلك من أنواع المخلوقات في البر والبحر والجو ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ومقتضى هذا أن يكون المسلم أداة صالحة نافعة لإعمار الكون ، وتقدُّم الحياة ، وسلامة البيئة التي هي أمانة في عنق الإنسان من أجل خيرة نفسه ، لأن كل ما خلق في الكون إنما هو لنفع الإنسان ، أخذاً من قول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

أي: خلق لكم الأرض وما فيها ، لتنتفعوا بكل ما فيها ، وخصصها بكم على جهة الانتفاع منكم .

وفي آية أخرى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

[الجاثية : ١٣] .

ومن مقتضيات الانتفاع : إحسان العمل ، ومقابلة النعمة بالوفاء والحماية والصون ، وشكر الفضل الإلهي ، لتدوم المنفعة وتبقى ، فبالشكر تدوم النعم ، لا أن تشوه وتفنى ، فإن ترك إكرامها تعريض لها للفقدان ، وتشويهها وإفناؤها يكون بإفساد منافعها ، وتلويث بيئتها وجمالها وإتقانها ، لذا تكرر التذكير الإلهي بهذا الواجب ـ واجب الانتفاع المنضبط ، والحفاظ على مصادر المنفعة سليمة غير معيبة ، وجميلة غير قبيحة ، فقال الله سبحانه : ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الجاثية : ١٢] ومن أجمل ما ورد في السنة حديث : « أحسنوا جوار نعم الله »[(١)] .

* * *

(١) رواه الهيثمي وأبو يعلى وغيرهما .

obeikandi.com

معنى البيئة ومكوناتها

البيئة في اللغة : المنزل ، والحال ، ويقال : بيئة طبيعية ، وبيئة اجتماعية ، وبيئة سياسية ، وبيئة خارجية ، وبيئة داخلية . ويقال أيضاً : « إنه حسن البيئة » .

والبيئة الذاتية : أحد فروع علم البيئة ، الذي يبحث في أحوال البيئة المحيطة بنبات معين . وبيئة الأعماق : مجموعة الظروف والعوامل الطبيعية والكيميائية التي تسود في أعماق البحر فيما يزيد على ألفي قدم ، كالضوء والحرارة ، والضغط ، والحركة ، والأملاح ، والغازات الذائبة وغيرها .

والبيئة بنحو عام : جميع العوامل الأحيائية واللاأحيائية لأحد المواقع .

والمراد بالبيئة هنا في البحث : جميع الأحوال والظروف المحيطة بالإنسان في الداخل والخارج . ومكونات البيئة : هي العناصر الأربعة التي تعرف بالأغلفة : الغلاف الجوي ، الغلاف الصخري ، الغلاف المائي ، الغلاف الحيوي

وهذا المعنى يدل على أن ما بين الإنسان وبيئته تفاعلاً واضحاً ، فهو يؤثر فيها ويتأثر بها ، وتكون ردود الفعل الحسنة والسيئة متبادلة ، ولكن إهمال الإنسان وقلة وعيه وطيشه ، وعدم مبالاته بالآثار والانعكاسات الحاصلة ، يجعله قليل الإدراك للمخاطر ، على المستوى

البعيد ، فيتورط في الإساءة أحياناً ، ولا يفكر في الآثار المترتبة على فعله ، ثم يكون الندم ، ولات ساعة مندم .

وهذا يدعونا إلى تبيان عواقب إهمال حماية البيئة ، وآثارها الضارة على الإنسان والحيوان والنبات .

* * *

obeikandl.com

تلوث البيئة وأسبابه وأضراره وعوامل التلوث وآثاره

خلق الله تعالى الكون سماءه وأرضه ، بره وبحره ، أنهاره وشواطئه في أحسن حال ، وأبهى جمال ، وأحكم إتقان ، فكان الإنسان الأول سعيداً بنظافة البيئة التي حوله ، يتفيأ ظلالها ، ويستعذب جمالها ، وتحقق له الراحة والطمأنينة والاستقرار ، فلا يتعرض لكثير من مشكلات الحياة المعاصرة ، الآهلة بالسكان والمزدحمة البنيان ، والمعكرة الأجواء ، والمملوءة بالمشكلات اليومية الكثيرة .

وسعد الإنسان بالعيش في القرى والمدن ، لأنه مدني بالطبع ، لكنه لم يبذل العناية الكافية للحفاظ على جمال القرية والمدينة ، وأهمل في تنظيفها وترتيبها ورعايتها العامة ، وقصر همَّه على حماية مصالحه الذاتية أو الفردية ، ولم يكن مستواه الاجتماعي على النحو الكافي .

أسباب التلوث : تعددت في عصرنا الحاضر مظاهر التلوث البيئي ، وتباينت في الأقطار درجاتها بحسب رقي الشعوب ودنوها ، وكان أهم أسباب التلوث ما يأتي :

الإنسان وآثاره : الإنسان : هو المصدر الغالب للتلوث ، بسبب سوء تصرفه ، وقلة عنايته بالنظافة ، وجموح أطماعه في التفوق وحب الغلبة ، فأساء إلى البيئة الزراعية بترك مخلّفاتها تنتشر ، وإلى البيئة الصناعية بنشر آثارها الضارة ، وقلة الاحتياط في تطويق أنواع الدخان

المتصاعد ، وما تنشره الآلات الصناعية الكثيرة من حرارة ، وذرات سوداء بسبب احتراق الوقود وتطاير الرذاذ الكيماوي الضار ، وأساء أيضاً إلى بيئة التجارة ، فتكدست الشوارع والأحياء بفضلات التعليب والشحن والنقل الداخلي والخارجي .

وأهمل كثير من الناس العناية بالنظافة في المنزل والمجلس والثياب أو الملابس والبدن والأعضاء والأماكن العامة والأحياء الخاصة والعامة ، وشوَّهوا جمال المدينة ورونقها ، وألقوا المخلّفات والأطعمة والزجاجات المحطمة والفضلات في غير الأمكنة والأزمنة المخصصة لها ، مع أن الحاويات متوافرة وكثيرة .

ولم يقم عمال التنظيف بما يجب عليهم من الكنس والجمع والنقل والتخلص من القمامة ، وإتلافها إتلافاً سليماً بحيث لا تتسرب آثار الأدخنة إلى القرى والمدن المجاورة ، وشاع الكسل والتمرد بين فئات كثيرة .

وكان من أسوأ ما تعرَّضت له مياه البحار والشواطئ والأنهار الداخلية هو مصبّ مياه المجاري الملوثة والحاملة مختلف الجراثيم الفتاكة والأمراض السارية ، حتى تنبَّهت الحكومات إلى تلك المخاطر ، وغيَّرت مصبَّ المجاري وحوَّلتها إلى الصحارى ، وكانت وما تزال مدن كثيرة تتناول الخضراوات والبقول والثمار التي تسقى من هذه المياه .

وتسبَّب الإنسان في إحداث ظاهرة التصحر ، بقطع النباتات والأشجار ، وبناء المنازل محلها ، وامتدت يد الإنسان العدوانية إلى الغابات فأحرقتها أو قطعتها مع قلة المياه وجفاف الينابيع .

واستبد جنون التفوق الصناعي في الكثير من الدول إلى بناء مئات المعامل في الأحياء السكنية أو القريبة من ديار السكان ، ونشرت هذه المصانع أدخنتها وآثارها السيئة ، فأفسدت الهواء وعكرت صفو

الحياة ، وظهرت أمراض كثيرة بين عمال المصانع ، وامتد ضررها إلى المجاورين .

ونشرت السيارات ونحوها غازاتها السامة وحرارتها مما أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة في المدن .

وتجرّأت بعض الدول الصناعية على شحن سفنها بالنفايات النووية والغازات الكيماوية السامة وإفراغها في شواطىء بعض البلاد المتخلفة ، من غير تقدير للمخاطر ، وإيذاء لغيرهم من المستضعفين ، وهذا لون من ألوان الاستكبار والاستهانة بالآخرين .

وفي الجملة : إن الإنسان هو في الغالب أداة التلوث العاتية ، وقد تؤدي الأحداث العامة كالحروب والكوارث من الفيضانات والحرائق والزلازل وانتشار الأمراض الوبائية ، وتركّز الأوبئة السامة في بعض المناطق إلى التلوث ، مما يوجب على الإنسان تفادي ذلك ، وعلاج الأحوال الطارئة بنحو من السرعة والجدية التامة ، حتى إن الإنسان أصبح هو الجاني على نفسه بالجناية على بيئته .

وهذا هو الذي نبّه إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

ومظاهر الفساد كثيرة ، منها العام ومنها الخاص ، فالعام : كجفاف الأنهار والآبار والينابيع ، وفيضانات المحيطات واحتمال ذوبان الجليديات ، فيرتفع منسوب المياه في كثير من المحيطات والبحار ، ويؤدي الارتفاع إلى اختفاء معالم كثير من المدن الساحلية . كما أن من مظاهر التلوث العامة : ازدياد الحرارة صيفاً في العامين الأخيرين في أوربة وغيرها وفي أمريكا ، وبلدان الشرق الأوسط ، مما لم يسبق له

مثيل ، وأصبحت التغيرات المناخية موضع عناية بالغة ، ولاسيما بعد اكتشاف ثقب الأوزون : وهو التصدع في سماء الكرة الأرضية ، مما أسهم في زيادة معدّل الحرارة والاضطرابات المناخية .

وأدى إهمال حماية البيئة في داخل بلاد بعض الدول إلى الكثير من أمراض التنفس والغدد ، وانتشار الأوبئة ، وتفاعل الميكروبات أو الفيروسات مع بعضها بعض ، وتوليد أمراض جديدة .

وتوقع العلماء تغيّر خريطة الأرض في العقود الخمسة القادمة ، وتبدل أشكال الحياة إذا ظلت الأوضاع أو الأحوال على حالها ، وطالبوا بعقد مؤتمرات لاحتواء أزمة البيئة العالمية ، مثل مؤتمر هلسنكي ومؤتمر مونتريال في كندا عام١٩٨٧ ، وتمخضه عن بروتوكول مونتريال في خريف عام١٩٨٧ ، وصادقت عليه الدول الصناعية الكبرى ، لدراسة أسباب الأزمة الخاصة بالأوزون ، ووافقت٢٤ دولة صناعية على تخفيض إنتاجها بنسبة٥٠٪ حتى عام١٩٩٩ من مركبات « الكلورو فلورو كاربونات » المستخدمة في شتى أشكال البخاخات لمستحضرات التجميل وأثاث المنازل والمشافي ووسائل النقل ، وصناعة الثلاجات ووسائل التنظيف المذيبة ، ثم طرأ تعديل على هذا البروتوكول يقضي بحظر كامل على إنتاج هذه المركبات في نهاية التسعينيات . وفي عام١٩٩٢ عُقد في« ريودوجانيرو » بالبرازيل مؤتمر لحماية الغابات ، باسم« مؤتمر قمة الأرض » وتمخض فقط عن إقرار مبادئ عامة لحماية التربة والبيئة والأرض ، ولم تعالج المشكلة من جذورها بسبب جشع الشركات وحرصها على تحقيق أرباح غير محدودة من جرّاء قطع الغابات في الأمازون .

أضرار التلوث : إن تلوث البيئة خطر محقق على الحياة ذاتها ، وعلى المدن والقرى ، وعلى الإنسان في أحوال أنشطته المتعددة ،

وعلى الصحة العامة والخاصة ، فتكثر الوفيات ، وتتشوه مظاهر جمال المدينة والقرية ، بل يُعْصَف بها ، فتصبح الحياة كئيبة حزينة بائسة ، وتتأثر أنشطة الإنسان كلها ، فيضعف إنتاجه أو ينعدم ، ويدمر نفسه بنفسه ، وتنتشر أمراض كثيرة ومعقدة ، وتعم أوبئة فتاكة تهدد الحياة بالتراجع ، ويكون فساد البيئة سبباً يقضي على كثير من مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية .

ويكون تسرب المواد المشعة ، وانفجار المفاعلات النووية ، كانفجار مفاعل تشرنوبل النووي في روسيا عام١٩٨٩ أخطر المضار التي تؤدِّي إلى التشوه الجسدي ، وظهور الأمراض المستعصية ، وإضرار التربة والمزروعات والخضار ، ويصاب الناس بذعر شديد ومخاوف كثيرة .

وصاحب ظهور الثورة الصناعية الكبرى في أوربة واكتشاف الكربون السام تدمير متواصل للبيئة ، فقطعت الغابات ، وأبيدت المراعي ، وقلعت الأشجار التي هي من أكبر عوامل تنقية الأجواء وتصفية الهواء ، وانتشرت أدخنة مداخن المصانع التي ملأت الهواء بالسموم .

ثم ألقيت نفايات المعامل في الأنهار والبحار ، فتضرر النبات والحيوان والأسماك ، وأضر كل ذلك بصحة الإنسان .

وكان قطع أشجار غابات الأمازون طمعاً في أثمان الأخشاب سبباً في تهديد مصادر المطر وكمّيته .

وتسبَّب إلقاء أو دفن النفايات النووية الناجمة عن الصناعات الذرية إلى إيجاد مشكلات بيئية متنوعة ، لوَّثتها ، وأضرت بالبلاد والسكان المجاورين .

وأدى تعاظم ثقب الأوزون في الأجواء لما يوازي الثلث منه ، أو

ضعفي مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، لزيادة حرارة الأرض وغير ذلك من المشكلات الغامضة . وكان تزايد نسبة الأوزون في غلاف الأرض بسبب احتراق وقود السيارات سبباً في تخرشات العيون واحتقانها ، وتلوث الرئتين ، والتسبب في أمراض السرطان .

وحينما تمتزج المواد الكيماوية الخطيرة المعروفة باسم (الآريلامينات) مع غاز الأوزون ، ينتج خليط من الغاز القتّال الذي يسبب سرطان الرئة .

كما أن استنشاق دخان التبغ مع الأوزون يؤدي لإصابات سرطان الرئة بنسبة كبيرة .

وتقع أضرار كبيرة في الطبيعة كهجرة الأسماك ، وموت الحيوانات المائية ، وتصدّع تربة الحقول والمزارع والغابات ، وتتراجع بسبب ذلك المحاصيل الزراعية ، عند نزول أو هطول المطر الحامضي الذي ينشأ من الغازات السامة ، التي تلقيها مداخن المصانع كأوكسيدات الكبريت ، ثم تمتزج مع قطرات المطر المتجمعة في الغيوم قبل هطولها . وهذا فساد بحري ، يعقبه فساد بري ، حيث يتأذى القاطنون في المدن الصناعية الممطرة ، وتتضرر هياكل الأبنية الخارجية ، وصفائح الآلات والسيارات والمراكب .

وكذلك غاز الهالون المستخدم في أجهزة الكومبيتر للتنبيه من خطر الحرائق : يحدث أضراراً بطبقة الأوزون ، سواء مع وجود أشعة الشمس أو دونها[1] .

* * *

(١) انظر كتاب« سنريهم آياتنا » للأستاذ عدنان السبيعي : ص٥٩ـ٦٢ .

الإنسان والبيئة

البيئة متلازمة مع الإنسان ، فإن كانت نقية صالحة حسنة ، كان الإنسان صحيحاً سليماً معافى ، وإن كانت ملوثة فاسدة ، كان الإنسان مبتلىً بأمراض عديدة ، وهموم كثيرة ومشكلات معيشية مزعجة وأليمة قد تودي بحياته .

فما على الإنسان إلا أن يكون أميناً على البيئة ، فهي أمانة في عنقه ، وكل إنسان مسؤول عن توابعه ، ولا يتحمل غيره في الدرجة الأولى مثل نصيبه من الأذى الذي يصيبه ، بسبب ما جنت يداه . ويكون إهماله في رعاية البيئة وما يتسبب عن تلوثها من أوبئة وأمراض ضربة قاصمة تهدد حياته ووجوده . وعدم الوعي أو عدم الإدراك العام لمخاطر البيئة ليس هو أول ظلم يلحقه الإنسان بنفسه ، بسبب طيشه وترك إعمال فكره ، فهنالك مظالم كثيرة تنبع من الإنسان ذاته ، ثم يجد العلقم المرّ في نهاية المطاف ، وهذا طبع يحتاج دائماً للتربية والتوجيه والتهذيب ، حتى لا يهوي بصاحبه إلى مستنقعات المذلة والهوان ، أو المرض والموت ، وقد حذّر القرآن الكريم الإنسان من عواقب الإساءة لنفسه ، ومن نكران النعمة ، وترك شكرها وجحودها والإساءة إليها ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وعلى الإنسان العناية في الدرجة الأولى بالبيئة السكنية ، فيعنى بنقاء

الهواء ، وترك تلوثه بقدر الإمكان ، حتى لا يؤدي ذلك إلى الخلل في النمو العقلي الناتج عن التعرض للرصاص المستعمل في المعامل والمؤسسات . ويؤدي هذا التلوث إلى تدهور في الجهاز العصبي والعقلي للأطفال الذين يعيشون قرب الطرق الرئيسية . ويتخلص الإنسان من القمامة الصلبة الناتجة من المصانع ، والقمامة السائلة (وهي التي تنتقل مع الماء الحار) حتى لا تتسرب إلى المياه الجوفية والأنهار والشواطئ . وينبغي العناية ببيئة المنزل ، لأن البيوت المغلقة مثلاً تتولد فيها أمراض مختلفة ، كانتشار الفطريات الناتجة من الرطوبة التي تسبب أمراضاً جلدية ونفسية ، كما أن البيوت الفقيرة تصير مأوى لكثير من الحشرات الضارة . وعلى الدولة التخلص من أخطار وجود المصانع في المناطق السكنية ، لاستعمالها مواد سامة أو خطرة في الإنتاج .

* * *

obeikandl.com

البيئة والمدنية والحضارة

المدنية والتقدم العمراني ، وتحضر الحياة والإنسان[١] هما نتاج الإنسان ، وهما الحاكم الدقيق الحساس على تصرفاته وأفعاله ، وأنشطته وفعالياته ، فبمقدار الجمال والإتقان والتقدم في المدنية والحضارة ، يكون الإنسان صانع الحضارة بشطريها المادي والمعنوي . والمدنية بماديتها هي رمز الفخار والاعتزاز ومحط أنظار العالم ، سواء في عالمية المدنية ، أو في خصوصية الحضارة .

وبمقدار إهدار قيم الجمال والكمال وتدمير بيئة الإنسان ، يكون سلوك الإنسان غير مدني ولا حضاري أصلاً . فإذا شاهد المرء في مشيه في أي مكان القاذورات مثلاً ملقاة في الزوايا والمنعطفات وعلى الشواطئ ، وفي الأماكن العامة من حدائق وجسور وممرات ونحوها ، كان أهل تلك المواضع متخلّفين ، بعيدين عن الحضارة ، بل وأعداءً لها .

---

(١) الحضارة : مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها ، وهي خاصة في كل أمة من الأمم ، أي إن للحضارة بُعدين : بُعْداً روحانياً وأخلاقياً ، وبعداً مادياً ، والبعد المادي هو المدنية .

والمدنية : هي الوسائل والأدوات التي تساعد على حل مشكلات الحياة وجعلها أسهل وأفضل ، وهي عامة ، ولا تختص بها أمة من الأمم ، وليس لها علاقة بالعقائد .

ويكون الترتيب والنظام والنظافة بمختلف أشكالها هي مقياس شخصية الإنسان ومعرفة مكانته العالية ، أو انحدار تقديره ومستواه الثقافي والاجتماعي والإنساني . والإنسان السويّ والمتحضر هو الذي يسعد وينعم بجمال البيئة ونقاوتها ، ونظافتها وطيورها وحدائقها ، وأشجارها ، ومزروعاتها ، وطهارة أو نظافة مياهها العذبة والملحة .

والمتخلف أو الجاهل هو الذي يشقى بما حوله من قاذورات وميكروبات وديدان ، وهوام أرضية ، ومناخ حارّ شديد الحرارة ، أو بارد شديد البرودة .

فتكون سلامة البيئة ضرورة حتمية لحماية النفس والأهل والأولاد والجيران ، بل والحياة كلها ، من كل ألوان السوء والشر ، والفساد والتخلف ، والضياع والتشتت .

ويكون الحفاظ على البيئة من أخطار التلوث واجباً مرغباً فيه ، ومطلوباً شرعاً ، لأن الحياة التشريعية السليمة هي المناخ الملائم والبيئة اللازمة لتطبيق شرع الله ودينه . وإذا لم تتوافر بيئة تطبيق الشريعة على الوجه الأكمل والأنسب ، فلا تظهر الصورة الصحيحة للإسلام بغير ذلك أو بغير معرفة أحكام الحلال والحرام المنزلة من عند الله تعالى ، ويكون الاقتران بالبيئة عامل نجاح أو سبب فساد وإفساد ، والإنسان ابن البيئة ، شاء أم كره . وكل عوامل تقدم الأمم والشعوب مرتبطة بتحسين ظروف المناخ ، وأحوال البيئة . والعكس صحيح أيضاً ، فإن عوامل انهيار الأمم : تؤثر البيئة في مجراها وتعكس تصورات الأمة في شأنها ، أفراداً أو جماعات ، فالعاقل : هو من يحسِّن ظروف بيئته ، ويحمي جمالها ، ويتجاوز سيئاتها وسلبياتها . والجاهل : هو كل من يعبث في بيئته ، أو يهملها ، ويجعلها مباءة للقاذورات .

طرق الوقاية من التلوث والعلاج الدائم

من المعلوم أن الوقاية خير من العلاج ، وهو مبدأ إسلامي وإنساني وعقلي ، يتردد في كل الأوساط والحلول والمشكلات ، حيث يقول علماؤنا : استعدوا للبلاء قبل نزوله ، لأن تجنب الوقوع في المشكلة أو الكارثة يحمي الناس والبلاد والإنتاج والطبيعة من المضار والمفاسد ، ويكون أقل كلفة ، وأكثر ربحاً ، وأبعد عن الخسارة .

والله تعالى أبدع الخلق ، والكون ، والبيئة ، والطبيعة ، وجعل كل ذلك في أحسن تقويم ، وأكمل تكوين ، وأجمل بنيان ، ولم يترك الله خللاً ، أو نقصاً ، أو عيباً أو تشويهاً في شيء ، لأن الله سبحانه مصدر الكمال والجمال ، فهو كما قال :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤].

وهو سبحانه كما قيل عنه :

فهو الجميل والجليل والولي والطاهر القدّوس والرب العلي

ومقتضى هذا ضرورة اتقاء كل ما يؤدي إلى الخلل ، والابتعاد عن أساليب وأسباب التدمير الإنساني للبيئة ، والحفاظ على كمالها وجمالها وخيراتها ونعمها . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣-٤].

وقال النبي ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال »[١] .

فالأصل العام للمحافظة على الأشياء والجمال والصحة والبيئة : هو الوقاية ، وقال الأطباء قديماً : « درهم وقاية خير من قنطار علاج » . والنظافة وحسن الهندام ، وجمال العمران ، ومنع المضار والأوبئة : من أهم أساليب حماية البيئة من التلوث والقبح والتخريب والتعكير ، النابعة من إرادة الإنسان وممارسته .

وإن إلقاء المخلَّفات وعدم إلقاء الأوساخ ، وترك إسالة المياه القذرة في الشوارع ، من بدهيات الضروريات للوقاية العامة والخاصة ، أما إذا حدث خلل كوني من غير سبب أو تسبّب إنسان في إحداث عيب أو نقص ، كان على البشرية جمعاء المبادرة للعلاج الدائم ، حتى لا يتسع العيب ، ويستمر الخلل ، وتتضاعف المشكلات ، ومن الحكمة المعروفة : إصلاح الأشياء على عجل ، حتى لا يتسع الخرق على الراتق .

* * *

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

موقف الشريعة الإسلامية من حماية البيئة

لا نجد بعد البحث والتتبع والاستقراء ديناً أو نظاماً يعنى بالبيئة ونظافتها مثل الإسلام الذي جعل الطهارة والنظافة فرضاً لازماً ، وشرطاً مطلوباً في جميع أحوال الإنسان ، وفي كل حال محيط به ، أو يقوم هو به ، وبخاصة في أثناء العبادات ، فقال الله تعالى في أوائل ما نزل به القرآن : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] وقال النبي ﷺ : « الطُّهور شطر الإيمان »[١] . والأمر بطهارة الثياب أو بتنظيفها وتجميلها سبب واضح لنظافة البيئة وحمايتها من أي مصدر من مصادر التلوث ، لذا كان تجميل الهيئة وإصلاح اللباس أدباً جماً من آداب الإسلام الكبرى ، قال النبي ﷺ : « إنكم قادمون على إخوانكم ، فأصلحوا رِحالكم ، وأصلحوا لباسكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس ، فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »[٢] . ولا فرق في عناية الإسلام بالبيئة بين وقت السلم أو وقت الحرب .

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٣٨٠) . والفحش : ما اشتد قبحه من ذنوب ومعاصٍ من الأقوال والأفعال . والتفحش : هو تكلف الفحش وتعمده . وتلويث البيئة تفحش .

١ـ الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت السلم :

أمر الإسلام بالنظافة في جميع الأحوال والأمكنة والأزمنة ، وجعل ذلك ملازماً لحال المسلم في عبادة ربه ، وفي ممارسة عمله ، وفي متابعة جميع أنشطته الخاصة والعامة ، حفاظاً على نقاء البيئة وسلامتها ، والحرص على جمالها ، وترك جميع الأسباب المؤدية للإساءة إليها ، وإلى المجتمع ، والوسط المعيشي للإنسان ، قال النبي ﷺ : « تنظفوا بكل ما استطعتم ، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف »[(١)] .

والنظافة أنجح علاج وقائي من الأمراض والأوبئة التي تضر البيئة والمجتمع ، ولا بد من تكرارها يومياً وأسبوعياً وبعد مناسبات عديدة ، وذلك بجعل الوضوء والغسل فرضاً متكرراً للعبادة ومندوباً حين الذهاب للاجتماعات كالمسجد والجمعة والعيدين ونحو ذلك . وامتدح الله تعالى المتطهرين من آثار النجاسات ، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وأثنى الله على أهل قُباء الذين يُتْبعون الماء للأحجار و نحوها من كل قالع طاهر جامد في الاستنجاء ، فقال الله تعالى :

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وفرضية الوضوء وغسل الأعضاء الظاهرة المتعرضة للتلوث وفرض الغسل من الجنابة : معروفة في القرآن والسنة في آية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه الطرسوسي في جزئه ، وهو ضعيف ، لكن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل الأعمال .

﴿ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة : ٦] .

وقال النبي ﷺ : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ »(١) . وتكرار الوضوء ولو من غير حدث أو نقض : أمر مشروع مرغَّب فيه ، للحديث : « الوضوء على الوضوء نور على نور »(٢) . « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات »(٣) . « الوضوء قبل الطعام حسنة ، وبعد الطعام حسنتان »(٤) . أي غسل الأيدي . والغسل مندوب إليه يوم الجمعة ، لحديث « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »(٥) .

ويندب الغسل أيضاً لصلاة العيدين ، وللإحرام بحج أو عمرة ، ولدخول مكة ، ووقوف عرفة ، ومبيت مزدلقة ، وطواف زيارة(فرض) وطواف وداع ، ولغسل الميت ، ولصلاة الكسوف والخسوف ، وللمستحاضة ونحوها من المصابين به أو السلس ، وللإفاقة من جنون أو إغماء أو سكْر ، وعند حجامة ، وفي ليلة القدر وليلة النصف من شعبان (ليلة البراءة) وفي حال الفزع من مخوف أو ظلمة أو ريح شديدة ، ولتائب من ذنب ، ولقادم من سفر ، ولمن أصابته نجاسة وخفي مكانها .

ويسن كنس المسجد وتنظيفه وإزالة جميع الأوساخ منه ، ونهى

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه رَزين في مسنده ، وهو حديث ضعيف .
(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر ، وضعَّف الترمذي إسناده .
(٤) رواه الحاكم في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها ، وهو ضعيف .
(٥) أخرجه الجماعة(أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، مرفوعاً .

النبي ﷺ عن التبول بأبواب المساجد[١] ، وعن البول في الماء الجاري[٢] . أو الراكد[٣] . وفي المغتسل[٤] . وفي الجُحْر(ثقب أي شيء)[٥] .

وأمر النبي ﷺ بتنظيف البيت أو المنزل ، والشارع والساحات والأماكن العامة ، فقال : « نظِّفوا أفناءكم وساحاتكم ولا تشبهوا باليهود »[٦] . وقال أيضاً : « نظِّفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود »[٧] .

ومن أخطر مصادر تلوث البيئة : البراز والتبول في مواضع تجمّع الناس ، وبِرك الماء ، والطرقات العامة ، وتحت ظلال الأشجار التي يجلس الناس عادة فيها ، وعدّ ذلك من موجبات لعنة الله تعالى والناس ، فقال النبي ﷺ : « اتقوا الملاعن الثلاث : البرَاز[٨] في الموارد[٩] ، وقارعة الطريق[١٠] ، والظل »[١١] . والملاعن : مواضع اللعن ، قال الخطابي : والمراد هنا بالظل : هو الظل الذي

---

(١) رواه أبو داود في مراسيله عن مكحول(الترغيب والترهيب١/ ١٣٦) .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد عن جابر(المرجع والمكان السابق) .
(٣) رواه مسلم وابن ماجه والنسائي(المرجع والمكان السابق) .
(٤) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد عن بكر بن ماعز(المرجع والمكان السابق) .
(٥) رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن سرجس(المرجع السابق : ص ١٣٧) .
(٦) رواه الكحال .
(٧) رواه الترمذي وغيره .
(٨) اسم للفضاء الواسع ، وهو كناية عن التغوط .
(٩) أمكنة ورود الناس إليها .
(١٠) وسطه أو أعلاه ، والمراد : نفس الطريق .
(١١) رواه أبو داود وابن ماجه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو مرسل .

اتخذه الناس مقيلاً (موضع جلوس وراحة) ومنزلاً ينزلونه ، وليس كل ظل يحرم قضاء الحاجة تحته ، فقد قضى النبي ﷺ حاجته تحت حائش[١] من النخل ، وهو لا محالة له ظل . أي إن هذا إما في الصحراء أو في الحقول التي لا تتخذ مواضع للراحة . وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد عن ابن عباس : « اتقوا الملاعن الثلاث ، قيل : وما الملاعن الثلاث يا رسول الله؟ قال : أن يقعد أحدكم في ظل يُسْتَظلّ فيه ، أو في طريق ، أو في نقْع ماء » وهو ما اجتمع في البئر من الماء .

وأصرح من هذا وآكد في التشديد والتحذير من توسيخ الطرقات : قول النبي ﷺ : « من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم »[٢] .

والتنزه من البول ليس بالنسبة للآخرين فحسب ، بل بالنسبة للشخص نفسه ، لما فيه من أضرار صحية ودينية ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عامة عذاب القبر في البول ، فاستنزهوا من البول »[٣] .

ومن أهم أساليب حماية البيئة : ما يسمى اليوم بالحجر الصحي ، لمنع انتشار الأمراض السارية والأوبئة الخطيرة ، لتطويق المرض وحصره في أضيق نطاق ممكن ، وهذا التدبير الاحترازي أو الوقائي قرره الإسلام منذ نشأته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) حائش النخل : هو ما اجتمع منه .

(٢) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن عن حُذَيفة بن أُسيد رضي الله عنه : وروى الطبراني في الأوسط والبيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة : « من غَسَل سخيمته بملء طريق من طرق المسلمين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » والسخيمة : الغائط .

(٣) رواه البزار ، والطبراني في الكبير ، والحاكم والدارقطني ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه .

« لا يورد مُمْرِضٌ على مُصِحّ »[١] وفي حديث آخر للبخاري : « وفرّ من المجذوم كما تفِرّ من الأسد » وهذا من قبيل الوقاية .

وأما الاحتراز والحجر الصحي : فمستفاد من أحاديث أخرى ، مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض ، فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها »[٢] .

وهذا تدبير لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر ، لقول عمر رضي الله عنه في الرد على أبي عبيدة بن الجراح القائل : « أفراراً من قدر الله ؟ » : « نعم نفِرّ من قدر الله إلى قدَر الله . . . »[٣] .

والتدابير السلبية أو الاحترازية يصاحبها أيضاً التدابير الإيجابية للحفاظ على البيئة وحمايتها من أنواع التلوث ، ومنها العناية بالزرع وغرس الأشجار ، لأن ذلك يؤدي لتوفير جمال البيئة وتلطيفها ولأن الشجرة مجلبة للمطر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يغرس المسلم غرساً ، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر ، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة »[٤] وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم والترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له صدقة » .

وإذا عرفنا أن من أهم مقاصد خلق الإنسان ووجوده في الحياة : هو تعمير الكون ، وتمدين الحياة على نحو اجتماعي ، فإن هذه الرسالة أو

---

(١) رواه مسلم وأحمد وعبد الرزاق من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .
(٢) رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه .
(٣) تخريجه في الحديث السابق (جامع الأصول ٨/ ٣٦١) .
(٤) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

الأمانة التي يلتزم الإنسان بتنفيذها ، لا يتحقق مقتضاها إلا برعاية البيئة ، والحفاظ على وجودها نقية طيبة ، والابتعاد عن تلويثها بمختلف الوسائل ، وبذل كافة الجهود لتظل البيئة سليمة غير مشوهة ، طيبة الهواء والتربة غير معيبة .

كل هذه الوصايا من أجل خير الإنسان ، واستقرار السلم والأمان ونشر ألوية السعادة ، فلا يعقل بحال من الأحوال وجود اطمئنان في الحياة ، ورخاء في المعيشة ، من غير سلامة الوسط النظيف والكريم ، والبيئة الصالحة غير المشوهة ولا الملوثة .

٢ـ الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت الحرب :

الحروب المدمرة ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، حيث تشترك وسائل رهيبة في القتال جواً وبراً وبحراً ، وينجم عن الحروب عادة كوارث وأضرار : تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجمادات ، فيقع القتل والجرح ، وتمتلئ ساحات المعارك بأشلاء القتلىٰ ، وأنواع الجرحى والمرضى ، وتقتل الدواب ، وتقلع الأشجار ، وتحرق النباتات ، وتدمر المنازل والمتاجر والمؤسسات ، وتصبح المباني معرضة للسقوط في أي وقت .

فإذا لم تسعف الحكومات المرضى والجرحىٰ بالأطباء والممرضين وتعالجهم ، ولم تنقل الموتى لدفنهم ، والتخلص من آثار بقاياهم حتى لا تتفسخ جثثهم ، انتشرت الأمراض الوبائية ، وربما وقعت الحرائق ، ووقعت الفيضانات ، وفاضت المجاري ، وانقطعت وسائل الاتصال ، وحدث الهدم والدمار في كل مكان ، سواء في المدن أو في ساحات القتال .

وفي هذه الحال وجب على الدولة المسلمة وغير المسلمة تدارك الآفات وترميم الأضرار بالقدر الممكن ، وإنقاذ الجرحى ، وعلاج المرضى ، ودفن الموتىٰ ، ومواراة الحيوانات الميتة تحت التراب ، ومنع انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة ، وتطويق آثار التدمير بأقصى سرعة ممكنة ، سواء كان الموتى عرباً مسلمين أو غير عرب أو غير مسلمين ، محاربين أو مدنيين ، رجالاً أو نساء أو أطفالاً .

وللشريعة موقف متميز لحماية البيئة في معاملة الجرحى والمرضى والقتلى في أعقاب الحروب ، سوءا أكانوا من المسلمين أم من غيرهم ، لسمو رسالة الإسلام ، وكون الدين دين الله رب العالمين ، ولأن الإسلام دين الرحمة العامة للعالمين . ومن مظاهر عناية الإسلام بهؤلاء :

ـ أنه نهى عن قتال غير المقاتلة ، فلا يجوز شرعاً قتل الجرحى والمرضى ، ولا الإجهاز عليهم ، قال النبي ﷺ في فتح مكة : « ألا لا يجهزن على جريح ، ولا يتَّبعن مدبر ، ولا يقتلن أسير ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن »[1] . وهذا يخفف من ظاهرة القتلى وما قد تؤدي إليه من مشكلات بيئية عديدة ، قد لا يلتفت إلى القتلى في أثناء شدة الحرب ، وحمي الوطيس ، وقد يعجز أهل الإسعاف من أداء دورهم المطلوب على وجه أفضل بسبب نيران الأسلحة وكثافتها وتنوعها .

وهذا إسهام من الإسلام في أمور إنسانية ، ومشاركة للاتجاهات الدولية في ضرورة المعاملة الرحيمة بالجرحى والمرضى من جنود العدو .

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي .

وأما بالنسبة لجرحانا ومرضانا ، فقد كان للنساء المسلمات دور مشارك وطيب الأثر في جهاد الأعداء ، ومعالجة هؤلاء ، حتى لا تكون الجروح والأمراض سبباً للمضاعفة وعسر العلاج ، عن أم عطية الأنصارية قالت : « غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات[١] ، أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضىٰ »[٢] .

وعن الرُّبَيِّع بنت معوِّذ قالت : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، فنخدم القوم ، ونسقيهم الماء ، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة »[٣] .

وقد عُنيت الدول الحديثة بشأن المرضى والجرحى في ساحة الحرب ، منذ عام١٨٦٣م ، لأن الاعتبارات الإنسانية تقضي على كل الدول المحاربة بأن تعنى بجرحى ومرضى العدو الذين يقعون في أيديها ، عنايتها بجرحاها ومرضاها الذين يصابون في الميدان . ونظمت اتفاقيات جنيف لعام١٨٦٤ ، و١٩٢٩ ، و١٩٤٩ واجبات الدول المحاربة نحو جرحى ومرضى الحرب البرية . وتأسست جمعيات دولية للعناية بالجرحى والمرضى ، مثل جمعية الصليب الأحمر الدولية منذ عام١٩٢١ ، وساعدتها في عملها مؤسسات الصليب الأحمر ، والهلال الأحمر الوطنية التي تخضع لقواعد دولية مهمة[٤] .

---

(١) يقال للمعركة التي شارك فيها النبي ﷺ : غزوة ، وليست الغزوة بالمعنى القبلي القديم أو الشائع : وهو النهب والسلب والقتل غير المسوَّغ أو الهجوم الظالم أو الجائر .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أم عطية رضي الله عنها .

(٣) رواه أحمد والبخاري عن الربيع رضي الله عنها .

(٤) قانون الحرب والحياد للدكتور محمود سامي جنينة ، ط١٩٤٤ : ص٢٧٣ وما =

وأما القتلى : فنص فقهاؤنا على أنه يكره (أي يحرم) التعذيب والتمثيل بالقتلى ، وهو القطع والتشويه ، بعد الظفر . والمثلة : هي النكال عند القدرة على الأعداء[١] . وكره العلماء نقل رؤوس القتلى من بلادهم إلى بلاد المسلمين[٢] . كل ذلك يعدّ إكراماً للميت ، ومنعاً من احتمالات تلويث البيئة بأمراض تحدث . قال النبي ﷺ : « ادفنوا القتلى في مصارعهم »[٣] . وقد دفن المسلمون بأمر نبيهم قتلى المشركين في قَليب (بئر لم تطو) بعد معركة بدر ، وحفرت لقتلى يهود بني قريظة خنادق في سوق المدينة المنورة لإلقائهم فيها .

وجاء في تعديل اتفاقية الصليب الأحمر سنة١٩٢٩ ، و١٩٤٩ : أنه يجب على الدول المحاربة نحو القتلى : احترام جثثهم ، ولزوم دفنهم ، وسرعة تبادل المعلومات عنهم ، وإيقاف القتال مدة لنقلهم ودفنهم ، كما يوقف أحياناً لإعانة الجرحى الموجودين في ميدان القتال ، فيمتنع على الدول المتحاربة العبث بأشلاء القتلى ، والتمثيل بهم ، وسلب ما يكون معهم من نقود أو حلي أو أشياء أخرى ذات قيمة ، وأن تعمل على إعادة هذه الأشياء بقدر المستطاع إلى أسرهم . ويجب دفن جثث القتلى بعد تقديم المراسم الدينية الواجبة لهم . ويلزم

= بعدها ، مبادئ القانون الدولي العام لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد حافظ غانم : ص٦٠٣ ، الطبعة الثانية .

(١) الأم للشافعي ٤/ ١٦٢ ، الخرشي ٣/ ١٣٤ ، الطبعة الثانية ، المختصر النافع في فقه الإمامية : ص١١٢ .

(٢) شرح السير الكبير للسرخسي١/ ٧٨ وما بعدها ، الدردير في الشرح الكبير وحاشية الدسوقي٢/ ١٦٥ ، المهذب ٢/ ٢٣٦ ، الشرح الكبير للمقدسي ابن قدامة ١٠/ ٤٥٩ .

(٣) رواه أصحاب السنن الأربعة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

التحقق من شخصية الموتى ، وإرسال المعلومات عنهم إلى دولهم . ومن واجب القواد المتحاربين إيقاف القتال مدة ، باتفاق يسمى « كارتيل » في سبيل جمع جثث الموتى ، وكذلك يجب شرعاً على الدول المتحاربة حماية المجتمع والإنسان من آثار الحروب الأخرى غير القتل ، من حرائق وانتشار أضرار الأطعمة الملقاة ، ومنع كل وسائل الحرب المدمرة تدميراً جماعياً ، مثل الغبار الذري ، واستعمال المواد الكيمياوية السامة ، والغاز المميت للأعصاب ، ونحو ذلك من أساليب الإبادة الجماعية .

* * *

obeikandl.com

الخلاصة

البيئة التي خلقها الله جميلة وبهية ونافعة ، ولكن امتدت يد الإنسان في الغالب إلى جنباتها وأحوالها ، فأفسدتها ، أو شوهتها ، أو أفقدتها جمالها ، فتجب العودة إلى أصلها الطبيعي الإلهي ، لينعم بها الإنسان ، ويتفاعل معها ، ويحيا في جمالها ، ويحميها من كل آفات التلوث والأضرار .

وأسباب التلوث كثيرة : أهمها سوء نشاط الإنسان وتصرفاته وطيشه وعجلته ، وسوء آثار المعامل والمصانع ، وما تلقيه من أدخنة ، ونفايات سامة ، أفسدت التربة والشجر والهواء ، وشوهت جمال الجمادات ، وكذلك الأضرار الناجمة عن التصحر وقطع الأشجار ، وامتدت رقعة الصحراء بنسبة ٣٠٪ وهي تزداد على الدوام .

ومن الأسباب : تفجر السكان ، وسوء تخطيط القرى والمدن ، والمطارات ، وتلوث مياه الشرب والسقي والبحر والنهر .

ومنها : هذه السيارات وغيرها من الآلات الميكانيكية التي تنشر الحرارة والدخان والنفايات الضارة . ومنها ما هو عالمي : وهو ما خلَّفته الثورة الصناعية ، من أضرار كثيرة في البيئة العامة والخاصة ، وما أحدثته الاختراعات المدمرة ، كالقنابل الذرية التي استخدمت أحياناً ، وما سبقها من التجارب الذرية ، وما أعقبته من آثار التشويه

والدمار في النبات والإنسان والحيوان ، وكذلك انفجار بعض المفاعلات النووية أو تسرب الإشعاع الذري ، واستخدام الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية الخطيرة في الحروب الدولية ، والأسلحة الصاروخية ، وقنابل الطيران ، ومدافع البحار وغيرها ، ودفن النفايات النووية ونحوها من الغازات في شطآن البحار المجاورة للبلاد المتخلفة ، وهكذا يتبين ما أدت إليه تطبيقات العلوم الحديثة من آثار رهيبة ، مثل تلويث البيئة ، وتخريب المجال الحيوي للأرض .

وكذلك الحرائق المفتعلة وحرائق الحروب ، والفيضانات ، والأحداث الكونية الخطيرة ، مثل ثقب منطقة أو غلاف الأوزون .

والإنسان الآثم هو في النتيجة فريسة أو ضحية كل هذه الأحداث . وكان من الواجب المبادرة إلى حماية البيئة من كل أسباب أو عوامل التلوث ، وما يزال التقصير في هذا الاتجاه واضح المعالم ، على مستوى الوطن والدول ، ولا سيما الدول الصناعية الكبرى .

وأضرار التلوث بالإضافة إلى ما يصيب الإنسان من موت وتشوه وأمراض مستعصية ، أفسدت المدنية الحديثة ، وألحقت الفساد والسوء بالحضارة العالمية .

والعمل بمبدأ الوقاية من التلوث وحماية البيئة ألزم وأوجب من تدارك آثار التلوث ، ومحاولة ترميمها ، لأنه يصعب في العادة مهما بُذل في سبيل العلاج تدارك المخاطر واستئصالها . والشواهد على هذا كثيرة ، ولا سيما الإخلال بالظواهر الكونية ، كنقص كمية الأوزون ، وارتفاع حرارة الأرض ، والتغيرات الأرضية .

وكان وما يزال للشريعة الإسلامية إزاء الاتفاقيات والمعاهدات الدولية دور متميز ينبع من دافع العقيدة ، ويتصل بالتدين الصحيح ،

سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب .

فقد أمر الإسلام بالطهارة أو النظافة ، في النفس والبدن واللباس والمكان والزمان والاجتماع ، وجعل ذلك فرضاً لازماً لممارسة العبادة ، أو أدباً عالياً يثاب الإنسان على فعله ، كما حرَّم الإسلام كل نواحي الفساد والإفساد في التربة والطريق ، والظل ، والماء والبر والبحر وكل ما يحيط بالإنسان . وألزم الإسلام في وقت الحرب معالجة المرضى ، وإسعاف الجرحى ، ودفن القتلى ، وإطفاء الحرائق ، وتجنب التدمير ما أمكن ، لأن كل ذلك فساد ، والله لا يحب الفساد .

ولا نجد بهذا الشمول والاحتياط والعلاج ديناً عني بالبيئة والإنسان والإنسانية مثل الشريعة الإسلامية ذات الأصل أو المنشأ الإلهي .

* * *

الاقتراحات

هذه اقتراحات تقلل من الإصابة بالتلوث ، وتعمل على حماية البيئة ، واستئصال كل ظواهر العبث والخلل والإضرار والإفساد :

١ـ ضرورة تخصيص زوايا يومية في وسائل الإعلام كلها ، من صحافة ومجلات ومقالات وتلفاز وإذاعة ، للحديث المنبِّه والمؤثر عن سلامة البيئة ، والتحذير من الفتك بها ، وإيضاح مساوىء التلوث وآفاته ومخاطره على الإنسان ذاته في عاقبة الأمر .

٢ـ التوعية المستمرة لما تسبِّبه المخلَّفات الملقاة في الزوايا والشوارع والطرقات من أضرار وأخطار ومفاسد صحية واجتماعية وبيئية ، لأن السلامة أو الأمن أمر ضروري في محيط العمل ، ولا سيما السلامة الصناعية بمعناها الواسع : وهي اتخاذ التدابير اللازمة لتوفير شروط السلامة داخل المنشأة الصناعية ، ويشمل هذا : سلامة الأشخاص ، وسلامة المباني ، وسلامة المواد الأولية والمنتجات ، وسلامة الجوار . والسلامة والحذر عاملان مهمان جداً في البيئة العملية .

٣ـ العناية ببحث أسباب تلوث البيئة ، ولزوم حمايتها في مراحل الدراسة والتعليم ، ولدى العمال والصنَّاع والزراع ، والاعتماد على التربية وتطوير المؤسسات الخاصة بالبيئة ، وتطبيق القانون .

٤ـ على الدولة استنفار جميع طاقاتها وإمكاناتها لإطفاء الحرائق ، وتجنب كل ما يضر بالناس والمجتمع ، وتلافي التأثيرات المرعبة للزلازل والبراكين والفيضانات ، ومنع انتشار الأمراض الخطيرة بسببها .

٥ـ تجب المبادرة إلى المزيد من المعاهدات الدولية لحماية البيئة من آثار التلوث بأسبابه المختلفة ، والتخلص من الأسلحة الذرية ، وتحريم التجارب النووية والجرثومية والكيمياوية ، وتطويق المفاعلات الذرية بترسانة محكمة ، ريثما يتم دفنها إلى الأبد ، وذلك من غير استثناء دولة ما ، سواء الدول الكبرى أو الدول العنصرية كإسرائيل والهند وغيرهما .

٦ـ فرض غرامات مؤثرة على العابثين ، وكل من يلقي المخلَّفات في الطرقات ، سواء المشاة وراكبو السيارات والآلات الزراعية والصناعية .

٧ـ الحفاظ على الغابات والمناطق المشجرة ، ومنع امتداد يد الإنسان لإحراقها أو قطعها .

٨ـ العناية بنظافة الحدائق العامة وأماكن التنزه والاصطياف ، وشواطئ الأنهار والبحار ، والحرص على جمالها ، وإزالة كل ما يؤذي العين ، ويشوِّه الطبيعة ، ويسيء إلى النفس والمشاعر ، وضرورة إيجاد حمامات لقضاء الحاجة في الحدائق العامة .

٩ـ تكاتف الجهود الأمنية للدول والبشرية العادية ، في الإخبار عن المخالفين والمستهترين الذين يهددون البيئة بأضرار صحية أو غير إنسانية ، تؤدي إلى تشويه جمال المدن والقرى والبلاد ، والعبث بمعالم المدينة والحضارة .

١٠ـ متابعة رصد أحوال البيئة ودراستها في الحاضر والمستقبل ، والوقاية من التلوث البيئي ، واستئصال كل أسباب التلوث .

١١ـ إلقاء المخلَّفات والنفايات في الأماكن والأزمنة المخصصة لها .

١٢ـ شمول العناية بالبيئة في التربة والماء والطرقات ، لأنها من أهم مصادر التلوث .

١٣ـ العمل على تركيب آلات امتصاص أو تصفية لكل أضرار السيارات والآلات والأفران ومداخن المصانع والمعامل ، وإبعادها عن المناطق الآهلة بالسكان .

١٤ـ إن العمل الدؤوب والمحاولات الجادة على رعاية شؤون البيئة ، وحمل الإنسان والدول على رعايتها : واجب واطني وقومي وعالمي ، وضرورة حيوية وحساسة ، للحفاظ على سلامة البشرية ، وتخليصها من ألوان الهموم والمعاناة التي تمارسها .

١٥ـ التعاون على تخليص الدول الفقيرة والنامية في آسيا وإفريقية من آفات الجهل والمرض والفقر والقذارة ، والتوجيه لتربية الطفل والمجتمع على احترام البيئة ، والحرص على جمالها ونفعها ، ومنع إفسادها وتلويثها .

١٦ـ العناية بتثقيف المرأة ، وإشعارها بواجباتها ودورها في تربية الأولاد في البيت والشارع ومختلف الأماكن .

١٧ـ لا بد من تقديم نوعية جيدة ونظيفة للمياه الساحلية ، ومناقشة مدى تأثير المصادر الأرضية على المياه الجوفية ، وكذلك التعرف على تلوث البيئة البحرية نتيجة الصرف الصحي والصناعي ، وتقويم المخاطر الصحية للبيئة البحرية ، والتعرف على مدى تأثير المشاريع الإنمائية على البيئة البحرية .

١٨ـ إن الحفاظ على البيئة السكنية يتطلب ما يأتي :

أ ـ التزام طرق آمنة للتخلص من النفايات ، كالحرق ، والدفن ، وترك إعادة الاستعمال .

ب ـ اتخاذ التدابير القانونية والإدارية : وتتمثل بتشريع قوانين تفرض الحدود القصوى لإنتاج النفايات ، سواء السائلة منها أو الصلبة أو الهوائية ، بحيث تتماشى مع متطلبات النمو الاقتصادي وصحة المواطن . ولا بد أيضاً من وجود هيكل إداري لرقابة تطبيق القوانين ، والتنسيق مع الأجهزة الأخرى المعنية بقطاعات البيئة .

جـ ـ العناية بالبيئة في التدابير التربوية ، ففي المرحلة الابتدائية تكون دراسة البيئة جزءاً من التربية الوطنية والقيم الخلقية ، وفي التعليم الثانوي تثار إشكاليات ورؤوس مواضيع المواد البيئية .

د ـ اللجوء للحوافز الاقتصادية بفرض ضرائب وغرامات على المخالفين ، وصرف مكافآت وإعانات للمتخلفين .

هـ ـ التركيز على المسؤولية الفردية باعتبار الفرد مصدر المشكلات البيئية ، ليقوم كل فرد بمسؤوليته أحسن قيام . وعلى وسائل الإعلام توعية الأفراد وتبسيط مفاهيم البيئة ، كما على الحكومة العناية بسياسة فعالة ووضع استراتيجية للتنمية الاقتصادية ، لتنسجم مع البيئة السليمة .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

حفظ الصحة وسلامة البيئة
مقصد تشريعي أساسي

لقد عني العالم اليوم عناية كبيرة ، شغلت الوسط العلمي والاجتماعي والسياسي ، بأمر سلامة البيئة في البر والبحر والجو ، لأسباب ثلاثة : هي وجود ظاهرة المجاعة الناشئة عن القحط والجفاف في إفريقية وغيرها ، وتسرب الغازات السامة والمواد الكيماوية ، كما حدث في الهند عام ١٩٨٧ ، وانتشار الغبار الذري بسبب التجارب النووية سواء في الصحارى أم في البحار ،فإن تلوث البيئة البحرية أكثر خطراً من التلوث الإشعاعي ، وبسبب حادثة انفجار المفاعل النووي في (تشيرنوبل) ٢٦ أبريل (نيسان) عام ١٩٨٦م في روسيا التي أفسدت الخضار والفواكه واللحوم ، وامتدت إلى أوروبة ، ومات كثيرون بسببها ، هذا فضلاًعن استخدام الأسلحة الكيماوية في بعض الحروب القائمة والتي لايقتصر أثرها على الجيوش المتحاربة ،وإنما يمتد إلى المدنيين الآخرين . كما أن استعمال السجاير يلوث البيئة ويؤدي إلى موت أربعة ملايين نسمة كل عام .

وأخطر هذه الأسباب : الغبار الذري الذي قد يكون في يوم ما سبب فناء العالم ، وكأنه الدخان المشار إليه في القرآن الكريم : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٠-١٢] .

وقد حذرت من هذه المخاطر دراسة علمية استمرت ٣٠ شهراً عن أزمة البيئة في العالم ، قامت بها المنظمة العالمية للبيئة والتنمية التابعة للأمم المتحدة ، وقررت هذه الدراسة أنَّ تلوث البيئة في إفريقية والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا ، قد أصبح بالفعل مصدراً لعدم الاستقرار السياسي والتوتر الدولي . وجاء في التقرير : إن حوالي ٦٠ مليون شخص معظمهم من الأطفال قد ماتوا في جميع أنحاء العالم من أمراض الإسهال نتيجة شرب ماء غير نظيف ، ولسوء التغذية .

وأريد أن أبين موقف الإسلام من سلامة البيئة ،لأن ديار المسلمين أكثر البلاد اليوم تعرضاً لخطر تلوث البيئة ، وأن الموت الجماعي يفترس الآلاف والملايين منهم ، كما قال التقرير المتقدم . ويناسب ذلك في وقتنا المعاصر يوم حماية البيئة في ٥/ ٦/ ٢٠٠٠ .

مما لاشك فيه أن قوة الأمة بقوة أفرادها مالياً وصحياً وجسدياً ، وأن توفير المناخ الطيب ، والصحة العامة ، وسلامة البيئة عنصر ضروري لتوفير مقومات الحياة المطلوبة شرعاً ، وأن الحفاظ على الصحة والعافية واجب مفروض على كل مسلم ومسلمة ، ومقصد من مقاصد التشريع الإسلامي الأساسية ، لأن الحفاظ على الحياة والنفس من ضروريات الدين الخمس ، كما هو معلوم ، وهي (الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسب ، أوالعرض ، والمال) .

فليست الحياة مجرد حق مقدس ، وإنما الحفاظ على الحياة واجب شرعي أصيل ، بدليل أن تناول الطعام والشراب ، وإن كان في الأحوال العادية مباحاً ، فهو فرض واجب يأثم تاركه عند التعرض لخطر الموت والهلاك ، فقال الله تعالى :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وكما أن المجتمع أو البيئة ليس ملكاً خاصاً لأحد ، وإنما هو من حق الجميع ومشاع لكل الناس ، كذلك النفس الإنسانية ليست ملكاً لصاحبها . يتصرف فيها كيفما يشاء بهواه ، وإنما البيئة والحياة الإنسانية والنفوس البشرية ملك لله عز وجل ، ولا يحق لأي إنسان فرداً أوجماعة أو دولة الاعتداء على ملك الله الذي جعله حقاً في الحياة الهانئة لكل إنسان وجماعة ، فقال الله سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقد فرض الإسلام أحكاماً كثيرة للعناية بالصحة وسلامة البيئة بوسائل وقائية وعلاجية :

أما الوسائل العلاجية فمعروف حكمها ، قال النبي ﷺ ـ فيما يرويه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شَريك ـ : « تداووا عباد الله ، فإن الله تعالى لم يضع داء ، إلا وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم » .

وأما الوسائل الوقائية المادية والمعنوية : فهي ما يجب عليَّ بيانه ، لأن الوقاية خير من العلاج ، لذا رد النبي ﷺ على المقوقس هدية الطبيب قائلاً : « إنا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

ومن وسائل الوقاية : منع الضرر بالنفس وبالبيئة وبالمجتمع ، فقال الرسول ﷺ ـ فيما يرويه أحمد ومالك وابن ماجه عن ابن عباس ـ : « لاضرر ولا ضرار » وقال أيضاً فيما يرويه الترمذي : « ملعون من ضارَّ مؤمناً أو مكر به » « من ضارَّ ضار الله به » .

ومنها : التغذية بالطيبات الطاهرات غير المستخبثات ذات السميات والمضار لتحقيق نظافة المأكل والمشرب ، وبالتالي نظافة المسكن

والملبس ، فقال الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة : ٥] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ٥٧] ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] والغذاء المناسب يطرد كثيراً من الأمراض كالسل وغيره ، ويحفظ الصحة ، بل وينمي العقل ، ويلطف المشاعر والعواطف . ومنها قتل الحشرات والمؤذيات والفواسق الخمس ، قال ﷺ فيما رواه مسلم وغيره : « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية ، والغراب الأبقع ، والفأرة ، والكلب العقور ، والحدأة » ، ولا شك أن التبغ من الخبائث ، وقد ثبت ضرره الخاص والعام ، فينبغي تجنبه حماية للبيئة .

ومنها : خصال الفطرة العشر ، أخرج أحمد و مسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ـ عُقَد الأصابع ـ ونتف الإبط ، وانتقاص الماء ـ يعني الاستنجاء ـ والمضمضة » ، وأخرج ابن ماجه « السواك مَطْهرة للفم ، مَرْضاة للرب » وأخرج النسائي : « كان ﷺ إذا أراد أن يأكل غسل يديه » ، وأخرج أبو داود « كان ﷺ إذا توضأ يدلك أصابع رجليه بخنصره » ، وأخرج ابن ماجه « أن النبي ﷺ مسح أذنيه ، داخلهما بالسبابتين ، وخالف إبهاميه إلى ظاهر أذنيه ، فمسح ظاهرهما وباطنهما » وأخرج أيضاً « أن النبي ﷺ كان يمسح الموقين » أي ينظف العينين ، وأخرج أبو داود : « من كان له شعر فليكرمه » .

والختان سنة عند الحنفية والمالكية ، واجب أو فرض عند الشافعية والحنابلة ، ويكره المشي بلا نعل في الرِّجْلين ، والانتعال قائماً ، وإطالة الثياب حتى لا تصير مباءة للأقذار ، وأوساخ الشوارع ، ونقل المؤذيات .

ويسن إطفاء الحمى وحرارة الرأس بالماء البارد : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء »[١] روى ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد » .

ومن أهم الوسائل الوقائية : منع أسباب الأمراض النفسية والبدنية أيضاً ، وهي النزاع والشجار ، والأحزان ، واقتحام الأخطار في غير ساحات الجهاد ونحوها مما لا داعي له ، والسخط وعدم الرضا بالقضاء والقدر ، فقد ثبت أن القلق والهموم والاضطراب أسباب لكثير من الأمراض النفسية ، كالاكتئاب وغيره ، والجسدية ، كأمراض القلب وضغط الدم والقرحة وغيرها ، وقد استعاذ النبي ﷺ بدعائه قائلاً : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، ومن العجز والكسل . . » .

وهناك وسائل إيجابية ووقائية معاً كالتضامن والتماسك والتعاون والتآخي والإصلاح بين الناس وفعل المعروف والإحسان وحب الخير للآخرين ، ومحبة العمل ومحاربة البطالة ، والتحية والسلام على أهل البيت والجيران والناس ، فالسلام سبب التحابب كما جاء في الحديث الصحيح ، وكذا البشاشة والتبسم ، ففيهما راحة للنفس والأعضاء ، وسبب لكسب محبة الآخرين ، أخرج الترمذي : « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة » . ومن أخطر التدابير الوقائية لنظافة الباطن : طهارة النفس من أمراض القلوب التي تبلغ نحو

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ : « الحمى كير من جهنم ، فنحّوها عنكم بالماء البارد » .

الأربعين كالغل والحقد والحسد ، والتباغض ، والتدابر ، والتقاطع ، والمنافسة غير المشروعة في البيع والمساومة ، والبيع على البيع ، والخطبة على الخطبة ، قال ﷺ : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تناجشوا . . » ، « لايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » .

ومن الوسائل السلبية في الوقاية : توقي كثير من الأمراض المعدية ، ومنع انتشار الأمراض الوبائية كالكوليرا والطاعون ، وحصر المرض في مكانه وهو مايسمى بالحجر الصحي ، وإن كان الاعتقاد الثابت أن الله سبحانه وتعالى هو الشافي والممرض ، قال الله تعالى حاكياً قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٩ـ٨٠] ، وقال ﷺ بعد النهي عن العدوى بذاتها لابفعل الله : « وفِرَّ من المجذوم فِرارك من الأسد » [(١)] . وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية التي أمرنا الله تعالى بها ، وهي من قدر الله ، كما قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في طاعون عَمْواس لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه : « نعم ، نفر من قدر الله إلى قضائه » أو « من قدر الله إلى قدر الله » . وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي عن الرُّقية : « هي من قدر الله » ، فكما أن المرض من قدر الله ، والتداوي من قدر الله ، تكون الوقاية من قدر الله تعالى .

وكل ما ورد في القرآن الكريم من آيات التطهر والتطهير والطهارة البالغ عددها حوالي ٣٠ آية ، إنما كان لإيجاب طهارة النفس المؤمنة ، والبيئة الإنسانية في الظاهر والباطن ، ويظهر ذلك واضحاً في تصنيف

---

(١) رواه الطبري .

هذه الآيات في الموضوعات الآتية :

١ـ **نعمة المطر** : أعظم نعمة لتطهير البيئة من الملوثات كلها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال : ١١] .

٢ـ تطهير بيوت العبادة من الأرجاس المعنوية كالشرك والوثنية ، والمادية باعتبارها أماكن التجمعات ، قال الله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] .

٣ـ طهارة آل البيت والمجتمع من الملوثات المعنوية والمادية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] وقال سبحانه مبيناً حكمة فريضة الوضوء والغسل : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] .

٤ـ وجوب طهارة الثوب والبدن والمكان في الصلاة ، ليكون ذلك حاجزاً أمنياً من التلوث ، وملازمة النظافة ، وحفظ الصحة ، قال الله تعالى آمراً رسوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٤ـ ٥] ومدح الله سبحانه وتعالى جماعة في مسجد قباء يستنجون بالماء ، فقال : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] وفي آية أخرى تعميم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

٥ـ الغسل المتكرر بين الأزواج والزوجات ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ﴾ [المائدة : ٦] وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ [النساء : ٤٣] هذا ، وللغسل موجبات أخرى كالحيض والنفاس .

٦ـ طهارة الطعام والشراب في الجنة ، ويقاس عليه الموجود في الدنيا ، قال الله عز وجل : ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] ، وأمر الله الرسل بأكل الطيبات الطاهرات في الدنيا ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

٧ـ الطهارة لتلاوة القرآن ومسه ، ولمجالس العلم ، فقال الله تعالى : ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٨ـ٧٩] ، ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة : ٢] ، ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ـ ١٤] .

٨ـ جعل الله العذراء المطهرة المثل الأعلى للنساء في الدنيا ، والحوريات المطهرات للرجال في الآخرة ، فقال سبحانه عن السيدة مريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، وقال عز وجل عن الحوريات : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

٩ـ تطهير المال بالزكاة من شوائب الحرام واللغو ، ليكون المال المنتفع به طيباً على النفس ، هنيئاً مريئاً غير معكر صفواً ، ولا ضار جسداً ، قال الله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

١٠ـ إن إباحة المتعة الزوجية مشروطة بالطهارة ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

١١ـ التطهر من الفواحش أصل من أصول رسالات الرسل ، لذا قاومهم أهلها فقالوا : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] وباكتشاف خطورة مرض نقص المناعة أو (الإيدز) وأنه

مرض مميت مُعْدٍ ، ظهرت معجزة جديدة للقرآن الكريم حينما حرم هذه الفاحشة وشنع على أهلها ، فقال الله تعالى حاكياً قول لوط عليه السلام لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] ، ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] لذا عوقبوا بتدمير أرضهم واستئصالهم بريح مصحوبة بالحجارة المميتة .

١٢ـ تحريم العضل : أي منع المرأة من الزواج ، لأنه يؤدي إلى الفاحشة ، قال الله تعالى بعد بيان التحريم : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

١٣ـ منع مخاطبة أزواج النبي ﷺ من غير حجاب ، تحقيقاً لطهارة القلب من الوساوس الشيطانية والهواجس المريبة ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

١٤ـ تطهير المجتمع من أمراض النفاق التي يعشش فيها كل مظاهر الضعف والخبث والانزواء في البيوت للمكيدة والمكر وإشاعة الشائعات الضارة ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [المائدة : ٤١] .

وليس هناك وسيلة أنجع لحفظ الصحة ، والوقاية من تلوث البيئة وإزالة الغبار ، من فرضية الوضوء المتكررة خمس مرات أو أقل في اليوم والليلة ، لغسل الأعضاء الظاهرة المعرضة للتلوث : وهي الوجه ، والأيدي ، ومسح الرأس ، وغسل الرجلين ، في آية المائدة مع ملاحظة سنن الوضوء الأخرى كالمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين ظاهراً وباطناً .

وغسل الجسد يتكرر أيضاً في اليوم أو الأسبوع في الحضر والسفر :

إما على سبيل الفرضية والوجوب ، كغسل الجنابة ، والغسل بعد الحيض والنفاس ، وغسل الميت ، وإما على سبيل الندب والاستحباب ، كغسل الجمعة والعيدين ، وللإحرام بالحج والعمرة ، وصلاة الاستسقاء والكسوف ، وبعد غسل الميت ، لإزالة ما عساه قد علق بالغاسل ، والاعتكاف ، وعند تغيُّرِ رائحة البدن ، وحضور مجامع الناس .

ورغب الإسلام في نظافة الثياب والحذاء واختيار البياض في لباس الجمعة والإحرام ، فقال النبي ﷺ مجيباً الصحابي الذي ظن أن ذلك من الكبر ـ فيما يرويه مسلم والترمذي عن ابن مسعود ـ : « إن الله جميل يحب الجمال » وصان الإسلام بيئة المساكن من التلوث ، فأمر النبي ﷺ بنظافة البيوت ، قائلاً فيما رواه الترمذي عن سعد : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » وقال أيضاً فيما رواه البخاري في الأدب المفرد : « كل كلمة طيبة صدقة ، وعون الرجل أخاه صدقة ، والشربة من الماء تسقيها صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة » .

ونهى النبي ﷺ عن التبول والتغوط في ظلال الأشجار ، وضفاف الأنهار ، وفي الماء الجاري والراكد ، فقال فيما يرويه الإمام أحمد عن ابن عباس : « اتقوا الملاعن الثلاث : أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه ، أو في طريق ، أو في نقْع ماء » أي : أن يقعد لقضاء الحاجة في هذه الأماكن وفي رواية أبي داود وغيره : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » .

وحثت السنة النبوية على الزراعة وغرس الأشجار ، لمنع امتداد الغبار ، وجلب الأمطار ، والانتعاش بالخضرة في التنفس والاستمتاع

بالظل ، أو الانتفاع بالثمار ، فقال عليه السلام في الحديث الصحيح : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » . ولو عني المسلمون بالتشجير العناية اللائقة الكافية ، لانقلبت بلادهم جنات خضراء وبساتين نضرة .

والخلاصة : إن الإسلام معني عناية فائقة بصحة الفرد ، والجماعة ، والمجتمع ، والبيت ، والبلد ، والحانوت ، والملبس ، والمأكل ، والمشرب ، والبيئة البرية ، والبحرية ، والجوية ، كما أنه معني بنظافة الظاهر والباطن ، فإن كثيراً من أمراض العصر منشؤها العوامل النفسية التي لا نجدها عند المؤمنين المتدينين . والصحة وسلامة البيت من ضروريات الدين ومقاصد التشريع ، والعافية من أجلِّ النعم على الإنسان بعد الإيمان ، لذا قال النبي ﷺ فيما يرويه البخاري وغيره : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » وقال أيضاً فيما يرويه أحمد والترمذي : « سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية » وروى ابن ماجه : « من أصبح منكم معافىً في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا » .

* * *